

مكانة الخط العربي في الحضارة العربية الإسلامية
د. نادية لقجع جلول سايح
جامعة سيدي بلعباس

تاريخ القبول: 2018-07-05

تاريخ الإرسال: 2017-11-12

تاريخ النشر: جويلية 2018

ملخص:

لكل أمة ثوابت لا تقوم إلا بها، وتعمل باستمرار للحفاظ عليها إلى درجة التقديس التي تمكّن من توريثها للأجيال على مر العصور، وقد تنوعت أساليب الحفاظ تلك بين التصوير والكتابة والمشافهة والممارسة، ولعل الكتابة هي أوثقها، لما يمكن أن يعتري الأساليب الأخرى من تبدل وتغيّر. ولأن الكتابة ستؤدي دور شاهد حضارة، فحري بها أن تحمل ذلك في جوهرها، فتعبّر قبل أن تُقرأ، فلا عجب أن تشرّب الخط العربي كل تلك المعاني والتصورات والرؤى، وحمل كثافة دلالية اختزلت حضارة الأمة العربية الإسلامية. وعندما نطرح موضوعاً مثل هذا نتساءل عما قدمت الأمة الإسلامية للرفع من شأن الإنسان وخدمته؟ بل فيم تجلت مظاهر الحضارة الإسلامية إلى جانب الدين، والاقتصاد، والسياسة، والعلم، والاجتماع، والقضاء، والعمارة؟ أو بتساؤل آخر: كيف يكون الخط العربي شاهد حضارة تجذرت أصالتها في عمق التاريخ؟ بأي خاصية يتمتع بها جعلته أحد مكونات الهوية العربية والإسلامية؟

الكلمات المفتاحية: الكتابة العربية-الإسلام-الحضارة- الهوية...

Abstract :

Each nation has its own constant basic pillars which are permanently preserved to such a degree of sanctification that generations have bequeathed throughout ages. Therefore, different ways have been used to maintain and defend one's existence, such as photography, writing, practice and performance, among which writing is probably the most guaranteed, as the other modes may submit a change. Since writing plays the role of a witness on civilization, and really holds that in its essence, it expresses and rather interprets a real image of a nation. Thus, it is not astonishing that the Arabic calligraphy has absorbed all those meanings, perceptions and visions, and carried as well an intensive significance that summarizes the Arab Islamic civilization. So, for such a topic, many questions can be asked. One wonders about what have been done by the Moslem nation to elevate man's status and service? Yet, what aspects has the Islamic civilization had next to religion, economics, politics, science, sociology, justice, and architecture? In other words, how can the Arabic calligraphy be a witness on a civilization deeply rooted in history?? So, what quality has made it one of the components of the Arab and Islamic identity??

Key words: Arabic calligraphy; Civilization; Identity; Arab; Islamic...

تمهيد:

إذا رأيت صرحا شاهقا فتأكد أنه هُيئت له دعامة قوية متينة، ومتى رأيت نخلا باسقا يعانق عنان السماء فتيقن بأن جذوره السميكة تمتد إلى عمق الأرض. فلا الصرح يتزعزع ولا النخل يطاوع الرياح، والحرف الذي تتشكل منه الكلمة يجسد تماما ذلك الصرح وتلك الجذور. لم يعرف التاريخ أمة من الأمم عبر توالي الحقب، أولت خطها ما أولته الأمة العربية الإسلامية من اهتمام بالغ، حتى تحوّل من وسيلة للكتابة ووعاء للعلوم، إلى فن تجريدي راق قائم بذاته، وذلك بفضل جهود جهابذته عبر العصور المتلاحقة. فأي خاصية يتمتع بها جعلته أحد مكونات الهوية العربية والإسلامية؟ أيقن لنا أن نتساءل عما إذا كان فنا ترفيهيا جماليا؛ أم إنه صناعة لها أدواتها ومقوماتها وأسسها ودعائمه ومجالاتها؟ وكيف يمكن أن يكون إيقونة تواصل بين مختلف الشعوب؟

تعريف الخط:

يقترن مفهوم الخط اقترانا شديدا بمفهوم الكتابة في المعنى وفي الاستخدام، حتى ليبدو المفهومان وكأنهما شيء واحد، لما بينهما من العلاقة اللغوية والدلالية الخاصة والقوية، التي تستند إلى كون الأول من معاني الآخر في العرف اللغوي الذي نصت عليه المعاجم بالذات. ولكن النظر في المأثور العربي: الأدبي، والديني، والوظيفي، المتعلق بهذين المفهومين، يكشف عن وجود تباين دلالي دقيق واضح بينهما، يتمثل فيما يمكن أن نسميه عمومية الكتابة، وخصوصية الخط في التمثيل البصري-الرمزي للفظ أو المعنى بخاصة، واللغة بعامة¹

قال خلاد البرمكي: "الخط صورة روحها البيان، ويدها السرعة، وقدمها التسوية، وجوارحها معرفة الفصول"². وعلم الخط: هو معرفة كيفية تصوير اللفظ بحروف هجائه³
قال العتابي عن الخط بأنه "لسان اليد، وبهجة الضمير، ولفظ لهمم، والناطق عن الخواطر، وسفير العقول، ووحى الفكرة، وسلاح المعرفة، ومحادثة لأخلاء على التنائي، ومستودع السر، وديوان الأمور"⁴
أصل الكتابة العربية:

يذكر حاجي خليفة في كشف الظنون، أن الله سبحانه وتعالى أضاف تعليم الخط إلى نفسه وامتن به على عباده، في قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ (سورة العلق) وناهيك بذلك شرفاً، قال عبد الله بن عباس: الخط لسان اليد، قيل ما من أمر إلا والكتابة موكل به، مدبر له، ومعبر عنه، وبه ظهرت خاصة النوع الإنساني من القوة إلى الفعل، وامتاز به عن سائر الحيوانات، وقيل الخط أفضل من اللفظ؛ لأن اللفظ يفهم الحاضر والغائب، وفوائده كثيرة معروفة⁵.

تعددت الآراء في كيفية نشوء الكتابة العربية فمنها من ترى بأن: الكتابة العربية توقيف من عند الله تعالى، مستدلين في ذلك بقوله تعالى: ﴿إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (سورة العلق).

ورأي آخر يرى بأن الكتابة اختراع، وقد اختلف فيمن اخترع الكتابة العربية، فقد روي عن كعب الأحبار، أنه قال: أول من كتب الكتاب العبري والسرياني وسائر الكتب، "آدم عليه السلام" قبل موته بثلاثمائة سنة، كتبها في طين ثم طبخه، فلما أغرق الله جلّ وعزّ الأرض أيام نوح، بقي ذلك فأصاب كل منهم كتابهم، وبقي الكتاب العربي⁶. وروي عن ابن عباس: "أن أول من وضع الكتابة العربية اسماعيل على لفظه ومنطقه فعلمه موصولا حتى فرق بينه ولده". والروايات في هذا الباب تكثر وتختلف⁷.

وروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وعروة بن الزبير، أنهما قالوا: "أول من وضع الكتاب العربي قوم من الأوائل نزلوا في عدنان بن أد بن أدد، أسماؤهم: أبجد، وهوز، وحطي، وكلمن، وسعفس، وقرشت، فوضعوا الكتاب العربي على أسماؤهم، ووجدوا حروفا ليست من أمائهم، وهي الثاء والحاء والذال والطاء والضاد والطاء والغين، فسموا بالروادف⁸.

وقد ذكر العسكري عن الأوائل في ذلك أقوالا فقال: أول من وضع الكتاب العربي إسماعيل عليه السلام وقيل مُرامر بن مُرّة وأسلم بن سدره؛ وهما من أهل الأنبار، وفي ذلك يقول الشاعر:

كَتَبْتُ أَبَا جَادٍ وَحُطِّي مَرَامِرٌ * وَسَوَدَتْ سِرّاً بَالِي وَلَسْتُ بِكَاتِبٍ

وأخرج الحافظ أبو طاهر السلفي في الطيوريات بسنده عن الشعبي قال: أول العرب كتب بالعربية حرب بن أمية بن عبد شمس، تعلم من أهل الحيرة، وتعلم أهل الحيرة من أهل الأنبار.

وقال أبو بكر بن أبي داوود في كتاب المصاحف: حدثنا عبد الله بن محمد الزهري، حدثنا سفيان عن مجالد عن الشعبي قال: سألنا المهاجرين من أين تعلمتم الكتابة؟ قالوا: تعلمنا من أهل الحيرة، وسألنا أهل الحيرة: من أين تعلمتم الكتابة، قالوا: من أهل الأنبار⁹. قال ابن فارس: والذي نقوله فيه: إن الخط توقيف، وذلك لظاهر قوله عز وجل: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ وقال جل ثناؤه: ﴿وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ (سورة القلم). وإذا كان كذا

فليس ببعيد أن يوقّف آدم عليه السلام أو غيره من الأنبياء عليهم السلام على الكتاب. فأما أن يكون مخترع اختراعه من تلقاء نفسه، فشيء لا تُعلم صحته إلا من خبر صحيح¹⁰. وأخرج الإمام أحمد بن حنبل في مسنده عن أبي ذر أن النبي ﷺ قال: "أول من خط بالقلم إدريس عليه السلام."

من كان يعرف الكتابة من الصحابة رضوان الله عليهم؟

قال أبو بكر بن أبي داود، عن علي بن حرب، عن هشام بن محمد بن السائب قال: تعلم بشر بن عبد الملك الكتابة من أهل الأنبار وخرج إلى مكة، وتزوج الصهباء بنت حرب. وقيل إنه لما تعلم أبو سفيان بن حرب الخط من أبيه تعلمه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وجماعة من قريش، وتعلمه معاوية بن أبي سفيان من عمه سفيان

أما الأوس والخزرج فقد روى الواقدي بسنده إلى سعد بن سعيد قال: كانت الكتابة العربية قليلا في الأوس والخزرج، وكان يهودي من يهود ماسكة قد علّمها فكان يعلمها الصبيان، فجاء الإسلام وفيهم بضعة عشر يكتبون، منهم سعيد بن زُرارة، والمنذر بن عمر، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، يكتب الكتابين جميعا العربية والعبرانية، ورافع بن مالك، وأسيد بن حضير، ومغن بن عدي، وأبو عيس بن كثير، وأوس بن خولي، وبشير بن سعد¹¹.

وكان في أصحاب رسول الله ﷺ كاتبون منهم: أمير المؤمنين عليّ صلوات الله تعالى عليه، وعثمان، وزيد، وغيرهم¹²، وقد ذكر صاحب صبح الأعشى أن أبا بكر كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وكذلك عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، ومعاوية رضي الله عنهم، ومروان بن الحكم كان يكتب لعثمان بن عفان ثم صار الأمر إليه فيما بعد، وعبد الملك بن مروان كان يكتب لمعاوية بن أبي سفيان ثم انتقل الأمر إليه¹³.

قال رجل من أهل دومة الجندل من كندة يَمُّ على قريش بالخط¹⁴:

لَا تَجِدُوا نَعْمَاءَ بَشَرٍ عَلَيْكُمْ * فَقَدْ كَانَ مَيْمُونُ النَّقِيبَةِ أَرْهَرَا
أَتَاكُمْ بِخَطِّ الْجَزْمِ حَتَّى حَفِظْتُمْ * مِّنَ الْمَالِ مَا قَدْ كَانَ شَتَّى مُبَعَثَرَا
وَأَتَقْنْتُمْ مَا كَانَ بِالْمَالِ مُهْمَلًا * وَطَامَنْتُمْ مَا كَانَ مِنْهُ مَنْفَرَا
فَأَجْرَيْتُمُ الْأَقْلَامَ عَوْدًا وَبَدَاةً * وَضَاهَيْتُمُ كُتَابَ كِسْرَى وَقَيْصَرَا
وَأَغْنَيْتُمُو عَن مُّسْنِدِ الْحَيِّ حَمِير * وَمَا زَبَرْتُمْ فِي الصَّحْفِ أَقْيَالَ حَمِيرَا

قال القالي في الأمالي: حدثنا أبو الميَّاس قال حدثنا أحمد بن عبيد بن ناصح قال: قال الأصمعي: قيل لذي الرُّمة: من أين عرفت الميم لولا صدق من نسبك إلى تعليم أولاد الأعراب في أكتاف الإبل؟ فقال: والله ما عرفت الميم إلا أنني قَدِمْتُ من البادية إلى الريف، فرأيت الصبيان وهم يجوزون بالفجرم في الأوق، فَوَقَفْتُ حِيَالَهُمْ أَنْظُرَ إِلَيْهِمْ، فقال غلام من الغلّة: قد أَرَقْتُمْ هذه الأوقة فجعلتموها كالميم، فقام غلام من الغلّة فوضع مِنْجَمَهُ في الأوقة فَنَجَّنَجَهُ فَأَفْهَقَهَا، فعلمت أن الميم شيء ضَيِّقٌ فَشَبَّهْتُ عَيْنَ نَاقَتِي بِهِ وَقَدْ اسْلَهَمْتُ وَأَعَيْتُ.

قال أبو الميَّاس: الفجرم: الجوز. قال أبو علي: ولم أجد هذه الكلمة في كتب اللغويين ولا سمعتها من أحد من أشياخنا غيره.

والأوقة: الحفرة. وقوله: أَرَقْتُمْ أي ضيقتم. وَنَجَّنَجَهُ: حَرَّكَه، وَأَفْهَقَهَا: مَلَأَهَا. وَالْمِنْجَم: العقب، وكل ما نَتَأَ وزاد على ما يليه فهو مِنْجَم. والكعب: مِنْجَم أيضا. واسْلَهَمْتُ: تَغَيَّرْتُ، والمسْلَهْمُ: الضامر المتغير¹⁵.

الخط العربي: هوية أمة:

يتمتع الخط العربي برمزية خاصة في الحضارة العربية الإسلامية، فهو تعبير حي عن

هوية الأمة المرتبطة بالعلم وبالكتاب، بما يعكسه من عمق تاريخي، وما ينطوي عليه من حس فني، وما يغذيه من تذوق جمالي، ويجسد في الوقت نفسه القيم الروحية الإسلامية التي تترجم مواقف الإنسان المسلم من الكون والحياة، وبجانب هذا يعد الخط العربي من الناحية الفنية أكثر خطوط العالم تنوعاً ومرونة وجمالية، مع القدرة اللامحدودة على التطور¹⁶؛ "بل لأن الخط أيضاً يتصل اتصالاً مباشراً بالتحويلات الحضارية: الدينية/ الصوفية، والإدارية/ السياسية، والثقافية/ العلمية"¹⁷.

وقد استعمل في الختم والتوقيع، حكي أن النبي صلى الله عليه وسلم، كتب إلى ملك الروم كتاباً ولم يختمه، فقيل له: إنه لا يقرؤه ما لم يكن مختوماً، فاتخذ عليه السلام خاتماً ونقش على فسه: (محمد رسول الله) وختم الكتاب، فصار الختم سنة، وانتقل هذا الخاتم إلى أبي بكر رضي الله عنه، فختم به كتبه مدة خلافته، ثم انتقل إلى عمر بن الخطاب فختم به كتبه أيام خلافته، ثم انتقل إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه¹⁸.

الخط العربي: شاهد حضارة:

بدأ الخط العربي في الانتشار خارج نطاق الجزيرة العربية مع الفتوحات الإسلامية، بوصفه حاملاً للنص القرآني وللثقافة الإسلامية، وقد احتضنته الشعوب الإسلامية المختلفة، وأسهمت في تطويره وإغنائه والارتقاء بجمالياته عبر العصور، فتعددت أنواعه حتى جاوزت المائة، من النماذج البسيطة إلى النماذج الزخرفية التي تتمتع بمميزات تشكيلية جمالية عالية، بالإضافة إلى الطبيعة الوظيفية للخط العربي، كانت خصائصه الفنية والجمالية تتيح إمكانيات كبيرة للخطاطين للوصول إلى درجة عالية من الحرية في الابتكار والإبداع¹⁹. لقد كان لكل خط من الخطوط استعمال خاص، إذ يختلف نوع الخط المكتوب بحسب الموضوع المراد كتابته، وهذا إن دل فعلى الرقي الحضاري لهذه الأمة: فنجد مثلاً: خط النسخ: تكتب به المصاحف والأحاديث النبوية، وغيرها. كان أكثر طواعية في أيدي العثمانيين، كان قد خصص ابتداء من الشيخ حمد الله لكتابة المصاحف، ولهذا السبب نرى أن المصادر العثمانية تنعت ذلك النوع من الخطوط بأنه خادم القرآن - خط الثلث: تكتب به رؤوس الموضوعات وكذلك عناوين الكتب. - خط الرقعة: لكتابة المراسلات اليومية²⁰. - خط الديواني: لكتابة البيانات. - خط الفارسي: للقصائد والبطاقات. - خط الطغراء: توقيع سلطاني لصاحب الحق في منح الترتيب.

الخط والجمال:

ساعدت طبيعة الكتابة العربية على اتخاذها عنصراً من العناصر الزخرفية الجميلة، وتتضمن كتابات العماثر والتحف في الغالب بعض العبارات الدعائية أو الآيات القرآنية، فضلاً عن النصوص التاريخية والتأسيسية، وكذلك أسماء الخلفاء والأمراء والصناع وكل من عملت لهم المباني أو صنعت لهم التحف، وهي إلى جانب كونها نصاً تاريخياً، أو تأسيسياً تعد في معظم الأحيان عنصراً زخرفياً بذاتها²¹، لما يملكه الخط العربي من خصوصية تضيف عليه هالة من الجمال والإبداع.

هو الفن الجميل للكتابة العربية - التي ساعدت بنيتها وما تتمتع به من مرونة وطواعية وقابلية للمد والرجع والاستدارة والتزوية والتشابك والتداخل والتركيب، على ارتقاء الخط العربي إلى فن جميل يتميز بقدرته على مساهمة التطورات والخامات. فتشكلت علاقة وثيقة بين كل نوع من أنواعه، والمواد التي يكتب بها أو عليها، فرأيناها ليناً ينساب برشاقة وغنائية، ورأيناها صلباً متزناً يشغل حيزه بجلال يمتد إلى ما حوله، ورأينا الصلابة واللين يتبادلان

ويتناغمان فيه. وهو في كل أحواله يشدّ الناظر ويمتعه بجمالياته الخاصة وتجريدته المتميزة التي عرفها بشكل مبكر وراقٍ، مما جعل له مكانة خاصة بين الفنون التشكيلية.

يعد الخط العربي من أحد أجمل الخطوط التي عرفتها البشرية وأروعها: فحروفه مرنة، وليست جامدة جافة، بل تنبض حيوية وديناميكية، لما تتمتع به من طواعية ومرونة وقابلية للتشكيل، فبلغ درجة عالية من الاتقان والجمال، وارتقى الى مستوى التعبير شكلاً وهيئة لمستوى المضمون المراد تبليغه.

والخط العربي يعتمد فنياً وجمالياً على قواعد خاصة تنطلق من التناسب بين الخط والنقطة والدائرة، وتستخدم في أدائه فنياً العناصر نفسها التي نراها في الفنون التشكيلية الأخرى، كالخط والكتلة، ليس بمعناها المتحرك مادياً فحسب؛ بل وبمعناها الجمالي الذي ينتج حركة ذاتية تجعل الخط يتهدى في رونق جمالي مستقلٍ عن مضامينه ومرتبطةٍ معها في آن واحد.

ومن خلال نمطيه الأساسيين المنحني الطياش، والهندسي، اللذين ينفرد كل منهما بجماليات خاصة، مع الزخارف المرافقة لهما، يستطيع الفنان إبداع نوع من الإيقاع نتيجة التضاد بين الأجزاء والألوان، وما يحققه ذلك من إحساس بصري بالنعومة والخشونة والتكامل الفني الناتج عن التوزيع الإيقاعي، مع تحقيق الوحدة في العمل الفني ككل. ومن خصائصه أيضاً مخالفة الطبيعة، والتجريد والاستطراد، ممّا يمنح الفنان الحرية اللازمة للتشكيل. وهذا ما ساعد الفنانين العرب والمسلمين على استخدامه في تشكيل تحفهم على الخامات المتنوعة: كالمعادن، والخزف، والخشب، والرخام، والجص، والزجاج، والنسيج، والورق بأنواعه، بالإضافة إلى الروائع المعمارية، فكان الخط العربي قاسماً مشتركاً لكل الفنون العربية الإسلامية التي أعارها طابعه الجمالي المنطلق من التناسب بين الخط والنقطة والدائرة.²²

لقد اتصف الحرف العربي بالجمالية منذ نشأته، وارتبطت هذه الجمالية بروعة اللغة العربية وجمالياتها، كيف لا وهو آلتها، ولسانها المعبر، كما هي وعاءه الذي ينهل منه شتى الألفاظ والتراكيب، فيصوغها أشكالاً جمالية فريدة.²³ ولعل سر الجمال في فن الخط كما يرى البعض، يكمن فيما تختزن ذاكرة الخطاط الحاذق من أشكال الحروف وتشكيلاتها وتزييناتها، وفي قدرته التوفيقية في ذاكرته الخطية ويده المنفذة، وهو ما يُسمى اصطلاحاً: (التصور البصري المكاني)، وإن هذه الذاكرة الواعية تصدر الأوامر إلى اليد المطيعة الماهرة... لتنفذ بالقصبة والمداد تلك الرؤى الجمالية المعتقد والقابعة في تلافيف الدماغ.

عندما تتحول اللغة العربية وهي أحد مكونات العقيدة في الحضارة الإسلامية على قيم فنية كالإيقاع والتناسب والوحدة والتنوع والشكل والأرضية وملامس السطوح، من خلال آيات القرآن الكريم على الحوائط، تظل العين تسبح معها وتتجول في ألوان الأزرق والسماعي والتركواز من أسفل لأعلى، في ترق يتحول إلى شحنة إبداعية إيمانية وجدانية في لحظة نادرة²⁴، لا يمكنها أن تتأتى إلا عبر الخط العربي الجميل.

الخط والقدسية:

إذا كان الخط لاحق بالمنطق في إيضاح المعاني وإبانه الأغراض والدلالة على المقاصد، فهو معبر صامتٌ مُسرٌّ، وهو مع ذلك يفعل فعل الناطق المفصح والمعرب الموضح، لأنه يدل على المعنى برسمه، كما يدل عليه المتكلم بلفظه.²⁵

إنّ الخط العربي لا يشكّل أداةً لتجسيد اللغة الحاملة للخصائص الحضارية والتاريخية والثقافية للأمم العربية فحسب؛ بل يحمل هذا الخطُّ أقدم رسالة خُصّ بها العرب إلى جميع

بني البشر في كل زمان ومكان، وهي القرآن الكريم، وبهذا المعنى أضحي الخط العربي يتمتع بميزة مقدسة لم تتوفر لغيره من الخطوط لكل اللغات المتعارف عليها في العالم اليوم. ولهذا الغرض اجتهد العرب وجهدوا ليمنحوا الأحرف العربية المكانة الأعلى، والمنزلة الأرفع التي منحها القرآن الكريم للغتهم السامية.

إن خطوط الخلائق جميعاً لا توازي الشكل والتطور الذي حظي به الحرف العربي، حتى وصلت الكتابة العربية إلى حد الإعجاز في الإجابة والإبداع، وإن هذا يعود لما أولاه العرب والمسلمون للحرف من منزلة قربت من القدسية لارتباط الحرف بكتاب الله (جل جلاله) القرآن الكريم.

إن "الخط ترب اللفظ وقسيمه؛ بل هو هو في الحقيقة، لأنه لا سبيل إلى رسم صورته الموضوعية للدلالة على الألفاظ، إلا بعد توسط اللفظ بينهما وبين الأوهام القائمة في النفس، حتى أن من يكتب وهو صامت، لا بد أن يكون مشكلاً للفظ في نفسه قبل أن تنتقل يده خطأ إلى طرسه. وكذلك الناظر في الكتاب من غير جهر، لا بد له من حكاية اللفظ بضميره ليكون ذلك سبيلاً إلى تمييز معناه وتحصيله"²⁶.

ويقول "بأول بارتيس" حول الدور المكرس للغة وكلماتها عند العرب: (في الإسلام يلعب الوازع الديني دوراً أساسياً في عمل الخطاط الذي يعبر في عمله عن التسليم لله والتوكل عليه). ويتجلى هذا المفهوم "مثلاً" في كتابة (لفظ الجلالة).

ولفظ الجلالة بوصفه موضوعاً يحتل عند العرب والمسلمين مكانة خاصة في نفوسهم وأرواحهم، كما حددتها العقيدة الإسلامية لقدسية هذه اللفظة وارتباطها بعالم السماء، لذا أفرد لها الخطاطون صياغة خطية تشكلية خاصة بها، تشذ عن بقية التركيبات البنائية لكل نوع من أنواع الخط، كعرف قائم وسائد في كل القواعد؛ حتى لا تتساوى مع غيرها من الكلمات، لأنها صياغة إيمانية في تركيبات بنائية.

تمثل الفنون الإسلامية روح التفاعل بين عقيدة المسلم ورؤيته، وما تجسده عبقرية الفنية في شكل خطوط وزخارف وعمارة وإيقاع وكلمة، وهي ثمرة التواصل بين ذاته وحركة الكون من حوله في مختلف أحواله النفسية والوجدانية²⁷.

رداءة الخط بين إكساب السعادة وضياح البيان:

إكساب السعادة: إنها سعادة العالم الذي يتفرغ للعلم، فلا يشغله تعلم الخط وتجويده عن تحصيل معارفه وتحميلها. جاء في الأثر بأن المأمون نظر يوماً في خط أحمد بن يوسف، وهو يكتب بين يديه، فقال: وهو ينتفس الصعداء: يا أحمد أود لو أن خطك لي بنصف ملكي. فقال: يا أمير المؤمنين لو أن في الخط فضيلة لما حرمه الله أعز خلقه وأجل رسله محمدًا صلى الله عليه وسلم. فقال: قد سليتني مما كنت أجد يا أحمد. وكان أبو عيسى بن الرشيد يقول: الخط صناعة باليد²⁸.

إن محل ما زاد على الخط المفهوم من تصحيح الحروف، وحسن الصورة، محل ما زاد على الكلام المفهوم من فصاحة الألفاظ وصحة الأعراب. ولذلك قالت العرب: حسن الخط أحد الفصاحتين. وكما أنه لا يعذر من أراد التقدم في الكلام أن يطرح الفصاحة والأعراب وإن فهم، وأفهم. كذلك لا يعذر من أراد التقدم في الخط أن يطرح تصحيح الحروف وتحسين الصور، وإن فهم وأفهم. وربما تقدم في الخط من كان الخط أجل فضائله، وأشرف خصائله، حتى صار عالماً مشهوراً، وسيداً مذكوراً. غير أن العلماء أطحوا صرف الهمة إلى تحسين الخط؛ لأنه يشغلهم عن العلم ويقطعهم عن التوفر عليه. ولذلك تجد خطوط العلماء في الأغلب

رديئة إلا من أسعده القضاء، وقد قال الفضل بن سهل: من سعادة المرء أن يكون رديء الخط؛ لو أن الزمان الذي يفنيه بالكتابة يشغله بالحفظ والنظر. وليست رداءة الخط هي السعادة، وإنما السعادة أن لا يكون له صارف عن العلم. وعادة ذي الخط الحسن أن يتشاغل بتحسين خطه عن العلم، فمن هذا الوجه صار برداءة خطه سعيداً، وإن لم تكن رداءة الخط سعادة²⁹. والطريق إلى تحسين الخط يكون بثلاثة أشياء:

أولها: تصحيح أشكال الحروف. والثاني: ترتيبها. والثالث: تصحيح الهجاء. فأما تشكيل الحروف فهو الأصل في أدب الخط، لأن الخط إنما يسمى جيداً إذا حُسنت أشكال حروفه وَرَدِيّاً إذا قُبِحت. وحسن صور حروف الخط في العين، شبيه بحسن مخارج اللفظ العذب في السمع³⁰.

ضياح البيان:

وربما اشتمل الخط القبيح على بلاغة وبيان وفوائد مستظرفة، فيرغب الناظر عن الفائدة التي هو محتاج إليها لوحشة الخط وقبحه، جاء في أدب الكاتب: "حدثنا أحمد بن إسماعيل، قال: كان مشايخ الكتاب والزهاد يختارون أن يكون ما يرفعونه عن جماعاتهم إلى دواوين السلطان بخط غير جيد، ومداد غير حالك في صحف مظلمة ليثقل على من يرد عليه من المتصفحين فيعدل عنها إلى غيرها مما لا يتعبه"³¹.

ومن أسباب منع قراءة الخط وفهم ما تضمنه: - إسقاطه ألفاظاً من أثناء الكلام يصير الباقي بها مبتور لا يعرف استخراجها ولا يفهم معناها، وهذا يكون إما من سهو الكاتب، أو من فساد نقله، وهذا يسهل استنباطه على من كان مرتاضاً بذلك النوع، فيستدل بحواشي الكلام، وما سلم منه على ما سقط أو فسد، لا سيما إذا قل؛ لأن الكلمة تستدعي ما يليها، ومعرفة المعنى توضح عن الكلام المترجم عنه.

-زيادة ألفاظ في أثناء الكلام يشكل بها معرفة الصحيح غير الزائد، من معرفة السقيم الزائد، فيصير الكل مشكلاً.

-إسقاط حروف من أثناء الكلمة تمنع من استخراجها على الصحة، وقد يكون هذا تارة من السهو فيقل، وتارة من ضعف الهجاء فيكثر.

- زيادة حروف في أثناء الكلمة، يشكل بها معرفة الصحيح من حروفها وهذا يكون تارة من سهو الكاتب فيقل، ولا يمنع من استخراج الصحيح، ويكون تارة لتعمية ومواضعة يقصد بها الكاتب إخفاء غرضه فيكثر كالتراجم.

وصل الحروف المفصولة وفصل الحروف الموصولة، فيدعو ذلك إلى الإشكال لأن الكلمة ينبه عليها وصل حروفها ويمنع فصلها من مشاركة غيرها، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "شر الكتابة المشق كما أن شر القراءة الهزيمة" (أي السرعة).

-تغيير الحروف عن أشكالها وإبدالها بأغيارها؛ حتى يكتب الحاء على شكل الباء، والصاد على شكل الراء.

-ضعف الخط عن تقويم الحروف على الأشكال الصحيحة، وإثباتها على الأوصاف الحقيقية حتى لا تكاد الحروف تمتاز عن أغيارها، حتى تصير العين الموصولة كالفاء، والمفصولة كالحاء، وهذا يكون من رداءة الخط وضعف اليد، ولقد قيل إن الخط الحسن ليزيد الحق وضوحاً.

-إغفال النقط والأشكال؛ بل قد استقبح الكتاب ذلك في المكاتبات، ورأوه من تقصير الكاتب، أو سوء ظنه بفهم المكاتب، وكان استقبحهم له في مكاتبة الرؤساء أكثر³².

دعوة لإصلاح الخط: ينبغي لطالب العلم أن يكشف عن الأسباب المانعة من فهم المعنى ليسهل عليه الوصول إليه، ثم يكون بعد ذلك سائسا لنفسه مدبرا لها في حال تعلمه، فإن للنفس نفورا يفضي إلى تقصير، ووفورا يؤول إلى سرف، وقيادها عسر. قال بعض الرؤساء من الكتاب: "أرخوا ذوائب خطوطكم"³³، يريد بذلك الحروف المخطوطة كالياء والنون والعين والحاء ..

قال الصولي: حدثني أبو الحسن محمد بن أحمد النيسابوري قال: سمعت الحسين بن يحيى بن نصر الجرجاني يقول: قال إبراهيم بن العباس الصولي لغلام كان يكتب بين يديه: "ليكن قلمك صلبا بين الدقة والغلط. ولا تبره عند عقدة، ولا تجعل في أنبوبة أنبوبة، ولا تكتن بقلم ملن، ولا ذي شق غير مستو، واختر من الأقلام ما يضرب إلى السمرة، واحد سكينك، ولا تستعملها لغير قلمك، وتعهده بالإصلاح يصلح، وليكن مقطك صلبا، ليمضي الخط مستويا لا مستطيلا، وابر قلمك بين التحريف والاستواء، وإذا كتبت الدقيق فأمل قلمك إلى إقامة الحروف لإشباع الخط، وإذا جللت فالى التحريف، واعلم أن تبطين القلم شؤم وتحريفه حرف، وهما دمار الخط. واعلم أن وزن الخط مثل وزن القراءة، فأجود الخط أبينه، كما أن أحمد القراءة أبينها"³⁴.

خاتمة:

مثما ينبغي للكاتب أن يتعلم لغة من يحتاج إلى مخاطبته أو مكاتبته، من اللغات، غير العربية، فذلك ينبغي أن يتعلم من الخطوط غير العربية ما يحتاج إليه من ذلك، فقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم زيد بن ثابت رضي الله عنه أن يتعلم كتاب يهود من السريانية أو العبرانية فتعلمها، وكان يقرأ على النبي صلى الله عليه وسلم كتبهم ويجيبهم عنه. إن المفهوم الجمالي للخط العربي يقوم أساسا على حقيقة الخط، التي هي في الأصل: أثر/شكل/صورة، يجري تحسينها واستحسانها في ضوء قيم ومعايير جمالية معينة؛ كالوزن والتناسب والبيان والتحقيق.. إذ تمثل العصب المعرفي لنظرية هذا الخط الفنية. إن الخط العربي بإمكانه أن يتشكل بأي شكل هندسي، بحيث لا تختلف ماهيته ولا يطرأ على جوهره تغيير أو تبديل. يقبل التدقيق والتحسين والزخرف عبر كل العصور. إن الخط الجميل بالإضافة إلى قيمته الفنية التشكيلية وعاء أمين لثقافتنا وفكرنا وقيمنا، والخطاط الحذق من استمد مادته من القرآن الكريم والحديث الشريف وأقوال الحكماء والبلغاء.

الهوامش:

- 1 محمد حنش، الخط العربي، ص. 24
- 2 الصولي، أدب الكتاب، ص. 41
- 3 حاجي خليفة، كشف الظنون، ص. 707.
- 4 موسوعة الخط، ص. 92.
- 5 حاجي خليفة، ص. 707
- 6 الصولي، أدب الكتاب، ص. 28
- 7 ابن فارس، الصحابي، ص. 15
- 8 الصولي أدب الكتاب، ص. 29
- 9 السيوطي، المزهر، ج2، ص. 257
- 10 ابن فارس، الصحابي، ص. 15
- 11 الفلقشندي، صبح الأعشى، ص. 14
- 12 ابن فارس، الصحابي، ص. 16
- 13 الفلقشندي، صبح الأعشى، ص. 40

- 14 السيوطي، المزهري، 261
- 15 القالي، الأمالي، ص. 5
- 16 عمر أفا ومحمد المغراوي، الخط المغربي، ص. 13
- 17 ادهام محمد حنش، الخط العربي في الوثائق العثمانية، ص.
- 18 علي بن خلف الكاتب، مواد البيان. 400
- 19 عمر أفا، الخط المغربي، ص. 24
- 20 ينظر الخط العربي في الوثائق العثمانية، ص. 189
- عبد الله عبد السلام الحداد، مقدمة في الآثار الإسلامية، دار الشوكاني للطباعة والنشر والتوزيع، ط. 1، 2003، ص. 173.
- 21.
- 22 alargam.com/languages
- 23 مشلح المريخي، رؤية جديدة
- أنصار محمد عوض الله رفاعي، دكتوراه، إشراف محمد نبيل الحسيني، عبد الغني النبوي الشال، ص. 188.
- 25 علي بن خلف الكاتب، مواد البيان، ص. 22
- 26 علي بن خلف الكاتب، مواد البيان، ص. 20
- 27 محمد حنش، الخط العربي، ص. 7
- 28 الثعالبي، تحسين القبيح، ص. 51 و 52
- 29 أدب الدنيا والدين، ص. 70-71
- 30 علي بن خلف، مواد البيان، ص. 318
- 31 الصولي، أدب الكتاب، ص. 42-
- 32 أدب الدنيا والدين، ص. 71-72
- أدب الكتاب، 53³³
- أدب الكتاب، ص. 54³⁴
- قائمة المراجع:
1. أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى، ج. 3، دار الكتب الخديوية، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1914.
2. أبو بكر محمد بن يحيى الصولي، أدب الكتاب، نسخه وصححه، محمد بهجت الأثرى، ونظر فيه، محمود شكري الألوسي، على نفقة المكتبة العربية، بغداد، المطبعة السلفية، مصر، 1341.
3. أبو منصور الثعالبي، تحسين القبيح وتقييح الحسن، تح. نبيل عبد الرحمن حياوي، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ج. 1.
4. أحمد بن فارس، الصحابي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تعليق، أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. 1، 1997.
5. الماورودي، أدب الدنيا والدين، تح. محمد كريم راجح، دار إقرأ، 1985.
6. إدهام محمد حنش، الخط العربي وحدود المصطلح الفني، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الكويت، ط. 1، 2008.
7. اسماعيل بن القاسم القالي، الأمالي، دار الكتب العلمية، لبنان، ج. 2، د. ط. د. ت.
8. حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مجلد، 1، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
9. ادهام محمد حنش، الخط العربي في الوثائق العثمانية، دار المناهج، الأردن، ط. 1، 1998.
10. عمر أفا ومحمد المغراوي، الخط المغربي تاريخ وواقع وأفاق، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط. 1، 2007.
11. مشلح المريخي، رؤية جديدة لتفسير ظاهرة الكتابات المعكوسة في الخط العربي، قسم الآثار والمتاحف، كلية الآداب جامعة الملك سعود، مجلة الدارة، فصلية محكمة، تصدر عن دارة الملك عبد العزيز العدد الأول، 1423هـ.
12. السيوطي، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، ج. 2، شرح وتعليق، محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرون، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، ط. 1، 2004.
13. علي بن خلف الكاتب، مواد البيان، تح. حاتم صالح الضامن، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط. 1، 2003.
14. عمر أفا ومحمد المغراوي، الخط المغربي تاريخ وواقع وأفاق، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط. 1، 2007.
15. عبد الله عبد السلام الحداد، مقدمة في الآثار الإسلامية، دار الشوكاني للطباعة والنشر والتوزيع، ط. 1، 2003.
16. موسوعة تراث الخط العربي، تح. هلال ناجي، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية، مصر، ط. 1، 2002.

